إب الخضراء

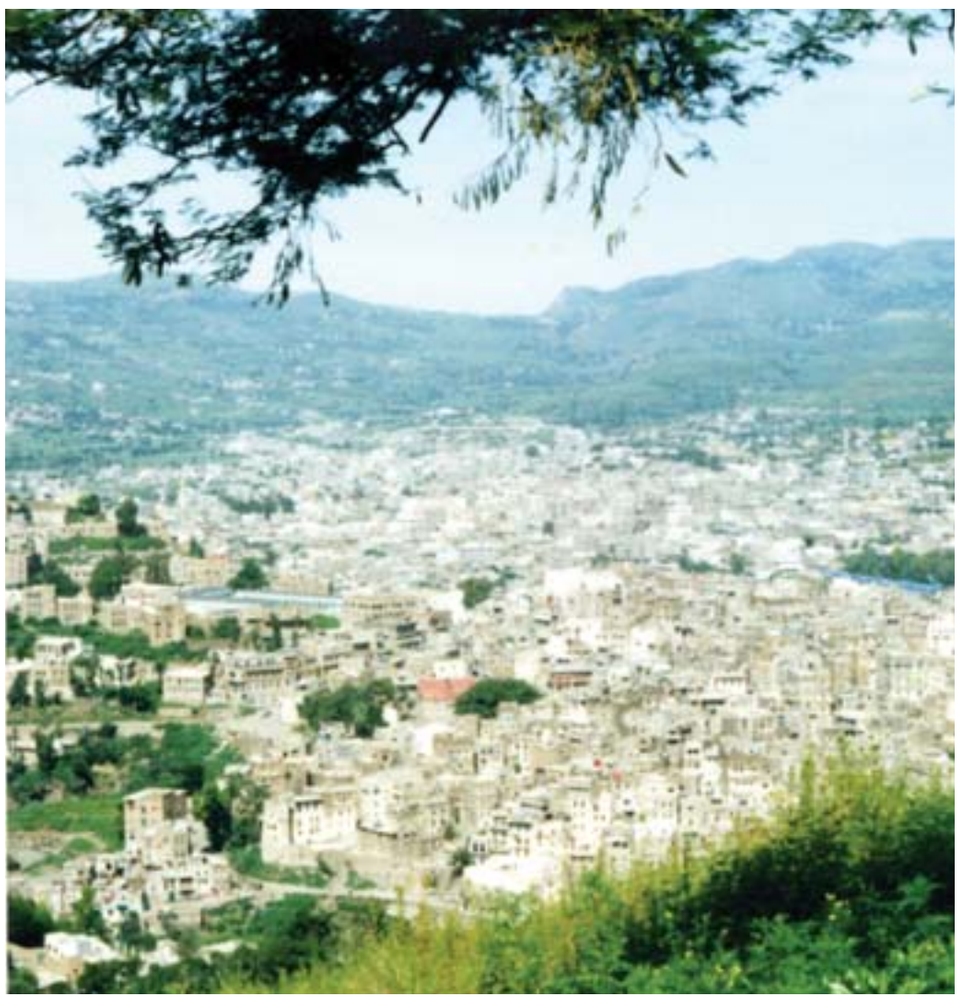

.. رغم أن اسم مدينة إب لا يتعدى الحرفين الأولين من حروف اللغة العربية .. لكن هذين الحرفين هما أساس اللغة (وألف باؤها) ، فهي سرة اليمن وفؤادها النابض بالأصالة والجمال .. يحبها ويهيم بها ولعا وصبابة كل من زارها أو كتبت له الأقدار حتى مجرد المرور منها .. ليضمر في قلبه وعدا لزيارتها وهو لا شك آت لينجز وعده.

من أين أردت الوصول إليها ترافقك أسرار الجمال ويستهويك النظر إلى بريق محياها .. وأينما تحط رحالك فيها تلقي إليك بضلال الهيبة كأنها ملكة جمال في معرض التنافس .. لعل أروع ما قيل فيها من وصف ما أطلقه الرحالة (الريحاني) منذ عقود حيث قال فيها: إب كقبضة لؤلؤ منثور على بساط أخضر) فكيف لي أن أوفيها حقها حين تتجمد الأحرف وتتعثر الكلمات إجلالا لعراقة تاريخها وسحر جمالها ففيها كلما اتسع الخيال ضاقت العبارات والأقوال فإلى إطلالتها:

رصد جمالها /محمد الرعوي

سمارة.. الإطلالة الأولى

تقع محافظة إب جنوب العاصمة صنعاء على بعد ١٩٣ كم وأنت قادم إليها من جهة الشمال الشرقي انحدارا يحملك إليها الشريط الأسود الاسفلتي شديد التعرج خصوصا عندما تبدأ الانحدار إليها عبر جبال سمارة إحدى مداخلها وحارسها الأمين تستوقفك فيه العديد من المحطات التاريخية لعل أبرزها قلعة سمارة التي تتربع في أعلى قمته ولاتزال تلك القمة شامخة المعالم رغم تقادم الأزمان العابرة التي مرت بها .. يستقبلك سمارة بابتسامة عريضة تداعبك نسماته العليلة كأنها أنفاس الأحبة .. وأنت تبحر في ضبابه المنثور يخال إليك في لحظة زهو غامرة وكأنك تعانق السماء وتمتطي سحبها الوردية الملبدة بشذرات غيومه العذبة رغم خطورة تعرجات الطريق التي تشق تفاصيله وانحداره إلا أنك ستعيش سعادة غامرة مندهشا بالمناظر الخلابة التي تطل عليها من خلاله كأنك تطل من نافذة في السماء.

حليل التي حافظت على أصالة القهوة والضيافة

في منتصف سمارة تستقبلك حليل فاتحة ذراعيها للقادمين فيها تزدان نفحة الضيافة بنمطها التقليدي الذي ينسيك عناء السفر ومتاعبه.. في حليل فضاء لا متناه وفي الخلف بضعة بيوت ملتصقة بالجبل ومتصلة ببعضها من ضيق الحيز المتاح للبناء ، غير أن المكان للزائر والمسافر أكثر من رحب، فعلى باب أحد هذه البيوت التي تدير ظهرها للجبل وتواجه الفضاء قد تجد امرأة عند كل باب تشع من خلف نقاب وأخرى جالسة على كرسي وأخرى ترحب بالضيف إنها حليل التي لا تعلن عن نفسها فعلى الجدران الخارجية ليس ثمة ما يدل على طبيعة النشاط .. في حليل أو في إحدى بيوتها التي تستقبلك بعد أن تطوي معظم نقيل سمارة إما صعودا أو هبوطا لتجدها بقية من تراث الطريق وخدماته.. كانت حليل كما يقول بعض الرواة مكانا لتقديم خدمات الطعام والمبيت للمسافرين قبل عصر السيارة الحديث ، فيما كان يسمى في المدن الريفية بـ(القهوة) وحين انتشرت المطاعم في واجهات الطرق اختفت معظم القهاوي إلا حليل ظلت تقدم الخدمات للمسافرين وبصورة عصرية.

الدليل الذي ينذر بالزحام

ثمة أمر قد يلهيك عن تعرجات الطريق وشدة انحدارها وأنت تمعن النظر وتحدق بعينيك يمينا وشمالا وأنت في أوج هذه المتعة يستقر بك الركب في منطقة الدليل التي تنذر بالزحام المتواصل على جنبات الطريق نظرا لضيق شوارعها وكثرة ساكنيها والوافدين إليها كونها تمثل سوقا عاما يجمع العديد من المناطق المجاورة وهذا كلما ضاق بك الدليل ازددت شوقا وتلهفا إلى رحابة السحول واخضراره المترامي الأطراف.

سحول ابن ناجي بساط من الخضرة والجمال

سحول ابن ناجي المشهور منذ القدم نرحل إليه لنترعرع في أحضانه ونتنفس عبق ريحانه المنبثق من زهوره وأغصانه اشتهر هذا الوادي بديمومة خضرته وجودة أرضه وخصوبتها اشتهر بزراعة العديد من المحاصيل الزراعية لعل أهمها الحبوب والفواكه ، قال عنه حكيم الزمان علي بن زايد: إن كنت هارب من الجوع أهرب سحول بن ناجي. يعتبر هذا الوادي من أجمل الوديان الزراعية الخصبة بحسب العديد من الدراسات وأنت تختال بين الحسن والجمال والخضرة في هذا الوادي يستهويك النظر لتلك الملكية الفاتنة التي تتربع على عرش السحر والجمال إنها فاتنة تأسرك ببريق محياها وطيبة أهلها وديمومة خضرتها إنها إب الخضراء.

إب عبر التاريخ

ترد لفظة إب في معاجم اللغة للدلالة على المكان الكثير المراعي الذي يأتي بطبيعته دون تدخل الإنسان فالأب بفتح الهمزة المكان كثير المراعي وتذكر المعاجم أن الفاكهة للناس والأب للدواب لقوله تعالى (وفاكهة وأبا).
كان يطلق على إب قديما مدينة الثجة نسبة إلى منطقة جبلة تقع إلى الجنوب من المدينة القديمة التي كانت تحمل الاسم نفسه.
وقد أشارت العديد من الدراسات إلى أن هذه المدينة تعتبر من أقدم وأعرق المدن اليمنية المتوغلة وقد ازدادت شهرتها بعد القرن الرابع الهجري ويمكن القول أن عوامل الطبيعة والظروف المناخية الملائمة التي تتميز بها إب قد وفرت أسباب استقرار الإنسان فيها منذ فجر التاريخ إضافة إلى إنشاء المدينة في العصور التاريخية الأمر الذي أدى إلى الازدهار الحضاري إضافة إلى إنشاء المدينة في العصور حيث أثبتت العديد من الدراسات الأثرية القديمة أن الإنسان في هذه المدينة قد عاش منذ عصور ما قبل التاريخ ومما يدل على ذلك فقد عثر على العديد من الأدوات الحجرية والفخارية التي كانت تستخدم في تلك الأزمنة والعصور.

المدينة القديمة وجه من وجوه التاريخ

المتأمل في هذه المدينة يبهره ذلك التصميم الفريد والأزقة والحواري التي تمثل مداخل ومخارج هذه المدينة ، حيث يصل عدد الحارات فيها إلى حوالي ٣٥ حارة تتخللها شوارع وأزقة ضيقة مرصوفة بالأحجار وترتبط بين أطراف المدينة ومراكزها الهامة من أسواق ومساجد ومدارس وغيرها .. ومما يزيدها جمالا وحلاوة طبيعة بنائها وتشكيلاتها المختلفة حيث تجعلك تعيش بالصورة والرسومات والمجسمات والصور وكأنك في أحد مشاهد التاريخ الإسلامي القديم الذي توحي به مبانيها القديمة الدالة على الارتباط الوثيق مع النمط المعماري الذي كان يستخدم في بناء القلاع والحصون في عهد العمارة الإسلامية القديمة .. ولعل من أهم آثارها القديمة سورها وأبوابها ومدارسها ومساجدها .. إنه طابع فريد من الأصالة والجمال يغمرك بنفحات التاريخ الذي لا يزال شاهدا على عراقة المدينة ومعالمها التي تتزاحم لتقدم أبهى صورة للزائر.

أبوابها ومداخلها القديمة

يوجد لهذه المدينة خمسة أبواب ومداخل رئيسية من خلال السور الذي كان يطوق أطرافها مثل باب النصر: الذي يقع في الجهة الشرقية ويؤدي إلى حارة الجامع الكبير.

باب سنبل: يقع في الجهة الجنوبية مطلا على الشعاب وقد تهدم ولم يبق سوى آثاره.
باب الراكزة: يؤدي هذا الباب الذي يقع في الجهة الشمالية إلى حارة الراكزة وهو عبارة عن دهليز صغير ذو فتحتين معقودتين يمثلان المدخل.

الباب الجديد: يقع في الجهة الغربية ويؤدي إلى السوق الجنوبي للمدينة.

الجامع الكبير

يقع الجامع الكبير وسط المدينة تقريبا ويطلق عليه الجامع العمري نسبة إلى تاريخه حيث يعود تاريخه إلى عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويتكون من صحن تحيط به أربعة أروقة لعل أعمقها رواق القبلة الذي هو عبارة عن مقدمة للجامع تغطيه بقباب شبيهة بمدارس بني رسول في تعز ولأهمية هذا الصرح فقد نال الكثير من العناية حيث تعاقبت عليه العديد من الإضافات والتجديدات متوجه من الأعلى بطاقية مقببة يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الرسولية عام ٦٨٥هـ حسب المدون على أحد أحجارها.

الأسواق

توجد فيها العديد من الأسواق التي وزعت تخصصاتها حسب حاجات الناس منذ القدم ومن هذه الأسواق:

- سوق المزاينة (الحلاقين) ويقع جوار المدرسة الشمسية.
- سوق الخباني في الميدان الأسفل شمال مدرسة الجلالية السفلى.
- سوق المقاوتة والطعام وسوق القماش.
- سوق اللحمة جوار سكة الحلقة.
- سوق المخايطة (سكة المنخلة).
- سوق المعاطرة والحطب والمدر واللبن جوار الميدان الأسفل.
- سوق الملح جوار الميدان الأعلى.

مدارسها وقصورها القديمة

توجد في المدينة مجموعة من هذه القصور والمدارس القديمة تاريخيا والجميلة معماريا والتي تزين واجهتها وأفاريزها ونوافذها على شكل فتحات دائرية منقوشة ومغطاة بالرخام من هذه القصور الدار البيضاء ، ودار الفرناج ، ودار الحسام ، ودار الخان وغيرها من الدور التي تعد من أهم المعالم التاريخية.
أما بالنسبة للمدارس فقد كان لها تخطيط معماري متميز على شكل أفنية متوسطة ومكشوفة من الناحية الشمالية ويوجد في هذه المدارس ديوان مفتوح على الفناء إلى المطاهير وبرك الماء ومساكن الطلاب كان البعض من هذه المدارس مغطى بقباب كبيرة وهو النوع الأكثر والسائد في إب ومن هذه المدارس المشهورة (مدرسة الجلالية العليا) التي شيدها الشيخ جلال الدين محمد بن ابي بكر السيري بداية القرن التاسع الهجري، (مدرسة الأسدية) وينسب بناؤها إلى أسد الدين محمد بن حسين بن علي رسول المتوفي سنة ٦٧٧هـ وتقع جوار السوق القديمة ، (المدرسة الشمسية) نسبة إلى شمس الدين ابو بكر بن فيروز في القرن السابع الهجري وغيرها من المدارس العديدة.
وحيث كانت تعنى هذه المدارس بتدريس العلوم والفقه واللغة العربية والعلوم الإسلامية الأخرى وتمثل هذه المدارس اليوم أفضل الأماكن لجذب السياح الذين يرتادون المدينة لما تشكله من إبداع في التصميم والإنشاء.